

صوم رمضان

بين العلم والأدب

للاستاذ ضياء الدخيلي

- ٢ -

ويقال إن أبا تراب النخشي خرج من البصرة إلى مكة فوصل إليها على أكلتين أكلة بالدباح (في معجم البلدان ذو النباح هضبة من ديار فزارة كذا جاء في كتاب الحازمي) وأكلة بذات عرق (قال في القاموس المحيط وذات عرق في البادية ميقات العراقيين ، وفي مجمع البحرين وذات عرق أول نهامة وآخر العقيق وهو عن مكة نحواً من مرحلتين وهو الموضع الذي وقت لأهل العراق في الحج) وقال أبو سليمان الدراني : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . قالوا وكان سهل بن عبد الله تسترئ إذا جاع قوى ، وإذا أكل ضعف . وكان من الصوفية من يأكل كل أربعين يوماً أكلة واحدة . قالوا واشتهى أبو الخير المسقاني السمك سنين كثيرة ثم نهى له أكله من وجه حلال ، فلما مد يده ليأكل أصابت أصبمه شوكة من شوك السمك فقام وترك الأكل وقال يارب هذا لمن مد يده بشهوة إلى الحلال فكيف بمن مد يده بشهوة إلى الحرام ؟ وفي الكتاب العزيز (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) فالجنة الأولى هي النفوى والثانية هي الجمادة . وقال إبراهيم بن شيان ما بت تحت سقف ولا في موضع عليه غلق أربعين سنة . وكنت أشتهى في أوقات أن أتناول شبة عدس فلم يتفق ؛ ثم حملت إلى وأنا بالشام غصارة (هي كما في المنجد القصة الكبيرة) (فارسية) فيها عدسية فتناولت منها وخرجت فرأيت قوارير معلقة فيها شبه أعودجات فظننتها خلا ، فقال بعض الناس أنتظر إلى هذه وتظنها خلا ؟ وأما هي خمر ، وهذه أعودجات هذه الدنان لدنان هناك ، فقلت قد لئمتي فرض الانكار ، فدخلت حانوت ذلك الحمار لأكرس الدنان والجرار فحملت إلى ابن طولون قاصر بضرب مائتي خشبة وطرحني في السجن فبقيت مدة حتى دخل أبو عبد الله

الرباني المغربي استأذى في ذلك البلد فعمل أنى يحوس فشفع في فأخرجت إليه فلما وقع بعصره على : قال أي شيء ، قلت ؟ فقلت شبة عدس ومائتي خشبة فقال لقد نجوت بحانا .

قال ابن أبي الحديد وأعلم أن تقليل الماء كالأكل لا يرب في أنه نافع للنفس والاخلاق ، والتجربة قد دلت عليه ، لأننا نرى الأكثر من الأكل يتأهب النوم والكسل وبلادة الحواس ، وإن كثرة الأكل تزيد الرقة وتورث القسوة والسمعية . ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حد يوجب جوعاً قليلاً ، فإن الجوع المفرط يورث ضعف الأعضاء الرئيسية واضطرابها واختلال قواها ، وذلك يقتضي تشويش النفس واضطراب الفكر واختلال العقل ولذلك تمرض الأخلاط السوداء لما أفرط عليه الجوع ، فاذن لا بد من اصلاح امر الغذاء بأن يكون قليل الكمية كثير الكيفية فتؤثر قلة كميته في أنه لا يشغل النفس بتدبير الهضم عن التوجه إلى الجملة العالية الروحانية ، وتؤثره كثرة كميته في تدارك الخلل الحاصل من قلة الكمية . ويجب أن يكون الغذاء شديد الأملاء للأعضاء الرئيسية لأنها هي المهمة من أعضاء البدن ، وما دامت باقية على كمال حالها لا يظهر كثير خلل من ضعف غيرها من الأعضاء .

وأعلم أن الرياضة والجوع هي امر يحتاج اليه المزيد الذي هو يعد في طريق السلوك إلى الله ، فإن كان انقطاع الغذاء يسيراً وإلى حد ليس بمفرط لم يضر ذلك بالبدن كل الاضرار وكان ذلك غاية الرياضة التي أشار إليها أمير المؤمنين على (ع) بقوله (حتى دق جليله ولطف غليظه) وإن أفرط وقع الحيف والأحجاف وعطب البدن ووقع صاحبه في الدق والذبول وذلك منهى عنه لا ، قتل النفس ، فهو كمن يقتل نفسه بالسيف والسكين ، هذا ما شرح به عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي لكلام الأمام (ع) وقد زانته الثقافة الإسلامية في ذلك المهدأى آخر حكم المباسيين وقد شهد الشارح سقوط بغداد بيد التتار وكانت العلوم التي نقلت إلى العربية في صدر الدولة المباسية قلما ينمت وأزدهرت عمارها في أواخرها وذلك في عهد ابن أبي الحديد ومعاصره نصير الدين الطوسي ولقد وجدت من التعارف في العراق في رمضان (وأظنه في باق الأقطار الإسلامية أيضاً) أن يكثر الصائمون نهاراً الأكل ليلاً فإذا وفد هذا الشهر على المدينة وفدت معه أفانين الأطعمة

قد سبغها (أى غطاها) وكان أكله فاحشاً . وكان يأكل حتى يستلقى ويقول يا غلام ارفع فوالله ما شبعتم ولكن ملئت . وإن هؤلاء الفرطين في الأكل خير علاج لهم الصوم الذى يطفى أجسامهم ويذيب الشحوم الزائدة ويربيع جهازهم الهضمى ولا ريب أن هذه الطائفة من الناس وطأة رمضان ثقيلة على نفسها ثقيلة على بطنها .

نقل أبو هلال العسكري في (ديوان الماني) وكان فرغ من تأليفه سنة ٣٩٥ هـ قال حدث الصولي عن أبي عبيدة قال أسلم أعرابي في أول الإسلام فأدركه شهر رمضان فجاج وعطش فقال الأعرابي يذكر ذلك :

وجدنا ديتكم سهلاً علينا شرائه سوى شهر الصيام
وقال ابن قتيبة الدينوري في (عيون الأخبار) قدم أعرابي ابن عم له في الحضر فأدركه شهر رمضان فقبل له يا أبا عمرو لقد أتاك شهر رمضان قال وما شهر رمضان قالوا الأمساك عن الطعام قال أيا ليل أم بالنهار قالوا لا بل بالنهار قال أفيرون بدلاً من الشهر قالوا لا قال فإن لم أصم فعلوا ماذا ؟ قالوا تضرب وتحبس فسام أياماً فلم يصبر فارتحل عنهم وجمل يقول :

فارتحل عنهم وجمل يقول :
يقول بنو عمى وقد زرت مصرهم شهياً أبا عمرو لشهر صيام
فقلت لهم هاتوا جرابي ومزودي سلام عليكم فاذهبوا بسلام
فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر على ولا مناع أكل طعام
وقول ابن قتيبة الدينوري في هذه الحكاية (أنه إن لم يصم ضرب وحبس) يناق ما نقله الشيخ نعمان الألوسي في (غالية المواعظ) في أنه ذكر في (البرازية) أن من أكل في شهر رمضان متممداً يؤسر بقتله ، لأن سنيعة الفاحش دليل الاستحلال وأن الصوم من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ولذلك يكفر جاحد .. وقيل لأعرابي أدركك رمضان فقال لأقطعنه بالأفطار وأدرك أعرابياً شهر رمضان فلم يصم فمذلته أسرته في الصوم فزجرها وانثأ يقول أنا صرنا بالصوم لادر درها وفي القبر سوم بالميم طويل ولا ريب أن هؤلاء الأعراب أشباها ونفراء في المجتمع الإسلامي ممن ضعفت إرادته واغترط في حبه التهام شهى الاطعمة . وإن رمضان من انفع الأدوية لهؤلاء الضعاف النفوس وهم أحوج

وأنواعها ونمذت المطايخ في تنوع الأكلات حتى انقلب شهر الصوم والجوع إلى فترة لهم ونخمة وقد سألت مرة أستاذي في (السكيمياء الحيوية) في كلية الطب العراقية (المستر هوكنز) عن رأيه في الصوم فأنى عليه من الوجهة الصحية والتهديبية غير أنه انتقد المسلمين لأفراطهم في الأكل ليلاً مما يثقل الجهاز الهضمي . ولا ريب أنه مصيب فإن للأعماق قابلية محدودة في استيعاب الأغذية بحيث تنجح أمصاراتها الهضمية فرصة التأثير على مكونات الغذاء من زلايات ودهنيات ونشويات وغير ذلك وفي حالة الإفراط المتعارف ليلاً عند الصائمين تثعب الأمعاء وتغليء للنهاية ولا تعود التغذية الهضمية قادرة على تزويد قطع الغذاء وأجزائه بما يحمله ككيميا من الحماض الهضمية وتثعب المعدة وتتوسع ولا شك أن ذلك يؤدي إلى أن يصاب المرض ذلك البطن الجشم التهم والله در الأمام على رع) إذ قال (كم من أكلة تمنع أكلات) لقد أخذ هذا المعنى بلفظه ابن الحريري فقال في القسامات (يا زب أكلة هاضت الآكل ومنعته مأكلاً) وأخذ ابن العلاف الشاعر فقال في سنوره يرثيه

أردت أن تأكل الفراخ ولا يأكلك الدهر أكل مضطهد
يا من لزيد الفراخ أرقمه ويحك هلا قنعت بالقدد
كم أكلة خامرت حشايرها فأخرجت روحه من الجسد
والقدد جمع الفدة وهي السير يقدر من الجلد والقطعة من الشيء وتنطبق أبيات ابن العلاف هذه ليس على السنور فقط بل على (بعض الشيوخ) الذين يجردون في رمضان ميداناً قسيحاً لافتك بفراخ الدجاج في الولائم الرمضانية .. وفي المثل (أكلة أبي خارجة) قال أعرابي وهو يدعو الله بباب الكمية اللهم ميتة كيتة (أبي خارجة) فسأله فقال أكل بدجاً وهو الحجل وشرب وطبا من اللبن (والوطب هو سقاء اللبن) وروى من النبيذ وهو كالحوض من جلود يذب فيه (نبذ النبيذ عمله) ونام في الشمس فأت فلقي الله شيمان ريان دفيثا . والعرب تميز بكثرة الأكل وتعب بالجشع والشره والنهم وقد كان فيها قوم موصوفون بكثرة الأكل منهم معاوية بن أبي سفيان قال أبو الحسن الدائني في كتاب (الأكلة) كان معاوية يأكل في اليوم أربع أكلات أخراهن عظمهن ثم يمشي بعدها برودة عليها يصل كثير ودهن

ذو الجسم القوى بالارتياح عند قيامه بتمرين شاق من الألعاب الرياضية ونجاحه فيه .. وكل مجهود يبذل في مقاومة هوى أو وقع شهوة ثم يؤول الى التغلب عليها يكسب الأرادة قوة . ولا ريب أن الصوم من اجلي مظاهر هذا المراك مع النفس الامارة بالسوء فاذا استطاع المرء أن يقودها الى النهاية شعر بتغلبه على أهوائها وقدرته على الرضوخ والتأبيرة على الأعمال الشاقة حتى نهايتها . وهناك ناحية اخرى في الصوم رآها طائفة من الفلاسفة والصوفية الذين يجدون لذة في ارهاق النفس وتمذيبها وحرمانها ويرون مع يوسف بن اسباط انه (لا يحجو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مغلق) فهم يريدون ان يخففوا القلب بعذاب جهنم اللواعة بالشرر فيدروا أمره باختياره على الصوم ويقلاوا من الشهوات الباردة التي فيها البلاء والدمار . وهم يرون ان الاسترسال في اللذات والشهوات جريرة لا تغفر؛ فملى المرء أن يقمعها ويلجم النفس بالصوم عنها ان هؤلاء الصوفية يجدون الفضيلة في حرمان النفس مما تشتهي وصدم رغباتها وأهوائها .

روى ابن ابى الحديد أن ابراهيم الخواص قال : كنت في جبل فرأيت رمانا فاشتهيته فدنوت منه فاخذت واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فضيت وتركزت الرمان ، فرأيت رجلا مطروحاً قد اجتمع عليه الزنايبر فسلمت عليه فرد على باسمي : فقلت كيف عرفني؟ قال من عرف الله لم يخف عليه شيء : فقلت أرى لك حالاً مع الله فلو سألته أن يحميك ويقيك من اذى هذه الزنايبير . فقال وأرى لك حالاً مع الله فلو سألته ان يقيك ويحميك الرمان فان لدغ الرمان يجد الانسان الله في الآخرة ؛ ولدغ الزنايبير يجد الانسان الله في الدنيا : فتركته ومضيت على وجهي) ونحن نرى أن الفكرة التي تحكمها هذه القصة بعيدة عن روح الإسلام وهي اشبه بعبادة البراهمة من المنسود وتمذيبهم نفوسهم منها بروح التعاليم الإسلامية . ولا ريب أن الإسلام تأثر كثيراً بعبادات الأمم التي دخلته - وعلى كل حال فإن الناس نجاة لذات الحياة أصناف ، فهم من دعا الى الزهد ، وقع الشهوات : قال الماوردي في (أدب الدنيا والدين) (ان شهوات النفس غير متناهية ، فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تمدتها الى شهوات استحدثتها فيصير الانسان اسير شهوات لا تنقضي وعبد هوى لا ينتهي ومن كان

المسلمين إلى صرامة تأديبه حتى يقوم معوجهم غازیاً ضدهم النفس بتهاويل عقوباته الاخرية في جهنم الطافحة بالويل والثبور الكشيرة الاقاعى الجبارة والمقارب المرعبة وفيها القيود الملموسة والمقاع من النار ، هذا مضافاً إلى غضب جبار السماوات كل هذه العقوبات الخيفة واقفة بالمرصاد لمن يفطر شهر رمضان متممداً الفسق والفجور مضافاً ذلك إلى عقوبة السلطة الدينية فيسوق الاسلام الخير لهذه النفوس الضعيفة ويلجمها عن الطعام فترة من الزمن فيصلح من ابدانها بالصف والجبر ويلزمها الاقتصاد والتقليل من امراضها في الأكل المتب للجهازها الهضمي ، فكأن رمضان علاج كربه العلم ، ودواء صر الذائق ، تساق اليه النفوس الراضية سواقاً ؛ وكأن الاسلام قد خص شهر رمضان بالصوم لترويض النفس والتغلب على رغباتها الامارة بالسوء فهو بمثابة تدريب عسكري يشترك في القيام به افواج المسلمين في فترة معينة من الزمن أو عمارين رياضية لتقوية النفس وتقويم الروح وتهذيب الاخلاق

والصوم فائدته الكبرى في علاج ضعف الإرادة في اولئك الذين لا يستطيعون ان يقاوموا أهوائهم وشهواتهم فهم مستسلمون لها راضخون لأحكامها تجرد الفرد من اولئك بدنه استرساله في سيره خلف شهواته السادرة في ببداء الضلال - فركب أسوأ الكبار فاندفع الى شرب الخمر وانجر الى المقامرة بعد ان زلت بقدمه الغريات لأول وهلة فاصبح كالذي غاصت قدماء في حاة من النار مكبلته وعاقته عن السير ولم يستطع أن يتخلص من شرها . وكثيراً ما كان على علم بسوء مغبة ما هو فيه ولكنه لا يستطيع ان يقاوم لضعف في إرادته ووهن في عزيمته ؛ ولربما رأى الخير في شيء ورأى وجوب عمله ، ولكن خاتته إرادته فاستسلم وقد كبله الكسل وقعد به الضعف وسيطر عليه الخمول فحاول الإسلام وهو دين الإصلاح وال عمران - أن يسالج ضعف الإرادة بالارادة كما يتقوى الجسم بالرياضة البدنية والعقل بالبحث العميق الدقيق ، فبالزام النفس المسلة بالصوم لدى يتطلب مشقة وجهداً تنفوي الإرادة وتعود ان تغلب على المساعب والمغبات وتشمس النفس بالارتياح في منالبة الصماب وخضد شوكة الرغبات الجامحة والتغلب عليها كما يشعر

كاستخدامه فانه وسط بين البخل والتبذير ... وبمقدوره أن يرضى بعض
وبالغ جماعة من الزهاد فلم يكتف بمضغهم بقمع الشهوات بل تعداهما إلى
تمذيب النفس بالقيام بالشمس في أشد ساعات الحر والتمسح على
الرغام في الشتاء وغير ذلك من أساليب عتيفة نسمع بها كثيراً
عن عبادات المنود الشاذة المبنية على هذه الفلسفة الحاططة بالاضالة
ويستقد بعض هؤلاء أنهم بتعذيب النفس الصارم القاسي ترتفع
نفوسهم وتعلو إلى درجات عالية في الرفق والقدسية وتمتصح لها
ابواب الأطلاع والارتقاء عن مستوى البشر، إلى غير ذلك من
الاعتقادات الفاسدة والمذاهب الباطلة. ويسمى هؤلاء أسلافهم هذا
في ادراك المعرفة بطريقة الاثراق ويسمون انفسهم الأنساقيين
كما ذكره لنا أستاذنا في الفلسفة الإسلامية في النجف الأشرف
(البنجردي) عند دراستنا عليه شرح منظومة السبزواري في
الفلسفة. ويرى الدكتور أحمد أمين في كتاب (الأخلاق) أن هذا
مذهب أكثر المعتنقين له من الناقين على الحياة المتشاعين من كل
شيء في الوجود المصابين بفقر الدم الذين ضففت شهواتهم لضعف
أجسامهم. وقد يرى هذا الرأي أيضاً من قويت صحته وكل جسمه
واشدت شهواته ولكن كانت إرادته أشد وسلطانه على نفسه
أقوى وأقوى ما يكون ذلك إذا أتى من ناحية الدين ... والزاهد
في الحقيقة ليس يرفض اللذة لأنها لذة لي هو يرفضها لأنه أخرى
أكبر منها في نظره. هذا ما يقوله (خليفة بن خلدون) ويؤيده
ما رأيت في شرح النهج لابن أبي الحديد المتزلي من قول الخواص
(من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها) ...
ومن الزهاد من يرفض أن ينعم بالآكل الشهي ونحوه لأنه
يرى أن الاستمرار في طلب اللذائذ بسبب آلامها إذ تصبح النفس
شرهة، أطامها كثيرة، وآلامها واسعة، وكلما نالت منها الكثير
طمعت فيها هو أكثر منه، ثم هي تتألم الآلام الشديدة لما حرمت
وتتجرع مع ما تantal فمصماً من الآلام. أضف إلى ذلك أن كثرة
التمتع باللذة يفقدها قيمتها ويذهب بروتقها وجمالها. ويرى هؤلاء
أن شعور الإنسان بأنه قادر على حرمان نفسه برفقه فوق حوادث
الزمان فلا تصبح لها القدرة على إخضاعه، وهذا الشعور بحرره من
ربقة الخوف وهو شعور فيه من اللذة ما ليس في اللذات الجسمية:

الكلام بنية نصيبه الرغبي

بهذا الحال لا ربح له سلاح) وأن طائفة من المتشعنين كما
يقص علينا الدكتور أحمد أمين في (الأخلاق) ترى أن أرق أنواع
الحياة الأخلاقية ما حوربت فيها الشهوات، وهؤلاء لا يتزوجون
مثلاً ولا يأكلون اللحوم ويمتزلون الناس جهدهم ولا يمكنون
النفس من مأكل أو شرب أو مقعد وثير أو ملابس جميل
وقد شنع (سنيكا) وهو من الفلاسفة أتباع الرواقيين وكان
في صدر الدولة الرومانية (٦٦م - ١٠٥م) لقد شنع هذا الفيلسوف
على من يشرب الماء مثلجاً في أيام الحر: وقال قد انتزع الترف من
القلوب ما كان من موارد الشفقة وأسباب العطف حتى صارت
أشد برذاً وقسوة من الثلج والجليد، فكان هذا الفيلسوف يوصي
بشمود جشوبة لبس وكأنه يرمق في حديثه كلمة النبي (ص)
المأثورة (اختر شئوا فإن الترف يزيل النعم) ولكنه أمرط وشط
عن الطريق السرى. أما كلمة النبي (ص) فقد جاءت جامعة مانعة
فيها عظة وتحذير وفيها تلويح إلى ما حدثنا به التاريخ من انقراض
أمم هلكت لأنراقها في الترف كما وردت الآثار من مصرع
الأمبراطورية الرومانية واضمحلالها بداء الترف.

ومالك تذهب بمبدأ حسبك أن ترجع إلى تاريخنا العربي فإن
الأمّة الإسلامية عندما حدثت عن تطالب الإسلام وانضمت في
الترف وفساد الحياة الحضريّة ذهبت منها صفات الرجولة ومعالم
البطولة وماعت أخلاق بنيتها فقامت عليها الأمم التي عنت من قبل
لسطوتها فاستعنت بها. لقد انقمر آباؤنا في نعم البلاد التي انتحوها
ونسوا وصية النبي (ص) بلبس جلد النمر لحوادث الدهر وكوارث
الزمن وانقمروا في الترف فعق عليهم ما حذرهم منه المقتد الأعظم
(ص) فانقرضوا ونزعت دولهم وذهبت رحمهم وعادوا عبيداً بعد
أن سادوا بالإسلام شرق الأرض وغربها. ولا ريب أن في الصوم
مظهراً من مظاهر الاختيشان وفيه فتوة تطبع النفوس على غرار
الرجولة والبطولة وتشربها القوة والصبر والجلد. ولنعد إلى حديث
مذهب أولئك الفلاسفة الذين أغرقوا في تمسك جشابة البس
وخشونة الحياة وقد قال أرسطو المعلم الأول: الفضيلة وسط
بين زيلتين: الانراط والتفريط. وفي الحديث الشريف خير الأمور
أوسطها وفي الكتاب العزيز خطاباً للمسلمين (جعلناكم أمة
وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) قال بعض اعلام الإسلام - كما
في مجمع البحرين للطريحي - كل خصلة محمود لها طرفان مذمومان